

الحجر والصولجان .. السياسة والعمارة الإسلامية

المؤلف : د. خالد عزب

الناشر: دار الشروق . القاهرة

تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠٠٧

عدد الصفحات: (٢٩٠) - المقاس (١٧ × ٢٤)

عرض

د. خالد عزب

مدير إدارة الإعلام ونائب مدير الخطوط

مكتبة الإسكندرية

الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

Khaledazab66@hotmail.com



دولة لدولة كل منها يحمل بين جنباته سمة هذه الدولة أو تلك ، وتنعكس العمارة هبة الدولة وقدرتها بل تعكس قدرة الدولة الاقتصادية وإرادتها السياسية. هكذا تتحدث العمارة فهي ليست حجراً بل رداء للحياة وذاكرة حية للمجتمعات.

تعددت المناهج التي درست العمارة الإسلامية ، ومعظمها درس من منظور بسيط غير مركب ، وهو ما أدى إلى أحادية النظرة لهذه العمارة ، وبالتالي قصور في إدراك ماهيتها. وكانت معظم الدراسات خلال العقود الماضية تركز على الدراسة الوصفية التي ترسم الشكل المعماري من خلال الكلمات ، دون البحث عن البنية التي صاغت هذه العمارة ونحتت زخارفها المبهرة نحتاً يخطف الأبصار ، أو تأصيل عناصرها المعمارية والزخرفية إلى أن تصل أحياناً بها إلى عمارة ما قبل الإسلام ، دون أن يدرك هذا المنهج التأصيلي أن هناك بوتقة صهرت فيها هذه العناصر ، وأعيد إنتاجها مرة أخرى بما يتوافق مع روح الحضارة الإسلامية ، بطريقة تحمل في أغلب الأحوال إبداعاً فوق ابتكار العنصر نفسه ، إذن فنحن أمام عدد من مستويات الدراسة ومحدداتها لكي نستطيع أن ندرس العمارة الإسلامية ، وأول هذه المحددات هو تحديد بنية العمارة الإسلامية ، ونحن نقصد هنا بالبنية العلاقة المتشابكة بين المكونات المادية والفكرية للعمارة ، فالبنية هنا تربط بين الكل الواقعي أو تجمع أجزاءه ، لذا فهي تعد القانون الذي يضبط هذه العلاقة.

يجب هنا التمييز بين (البنية السطحية) و(البنية العميقة) ، فالبنية السطحية هي كل هيكل الشيء ووحدته المادية الظاهرة ، أما البنية العميقة فهي كامنة في صميم الشيء ، وهي التي تمنح الظاهرة هويتها وتضفي عليها خصوصيتها. وعادة ما يعي المرء إدراك البنية السطحية المادية المباشرة ، فأدراكها أمر متيسر ، أما إدراك البنية الكامنة فهو أمر أكثر صعوبة ، يتطلب استخدام الحواس وإعمال العقل والخيال والحدس. لذا عادة ما يعيش البشر داخل بُنى اجتماعية وتاريخية واقتصادية يستنبطونها فتؤثر في سلوكهم وتشكيل رؤيتهم للكون وتحدد خطابهم الحضاري دون وعي منهم.

لذا لكي نصل إلى بنية العمارة الإسلامية ، يجب أن نفك هذه العمارة ، ونعيد تركيبها مرة أخرى ، وعبرة فك الشيء تعني فصله وفرق أجزائه بعضها عن بعض ، وعكسها (ركب الشيء) أي جعل الشيء بعضه فوق بعض وضمه إلى غيره وهذه العملية تهدف إلى فصل

خروجاً عن المعتاد يجيء كتاب "الحجر والصولجان .. السياسة والعمارة الإسلامية" ليقدم لنا رؤية للعلاقة بين البنية بين السياسة والعمارة ، لاشك أنها جريئة وتشكل حدثاً يستحق أن نقف عنده كثيراً ، المؤلف ذكر في مقدمة كتابه أن جدلاًثار حول مادة هذا الكتاب حينما قدمها كجزء من أطروحته لمناقشتها كاد يفضي إلى عدم مناقشة الرسالة ، حيث أصرت لجنة التحكيم على حذف كافة فصول هذا الكتاب ، الذي ينطلق من إثارة تساؤلات حول العمارة الإسلامية والسلطة بمكوناتها المختلفة .. السلطان ورجاله .. المجتمع وقواه الفاعلة والخاملة .. المبادئ الحاكمة للعلاقة بين الطرفين ، تقاعلات متبادلة تعكس روح كل عصر وطبيعته. فجديلية العلاقة فرضت وجود مؤسسة الأوقاف التي من المفترض أنها تؤدي دوراً مهماً ، يوازي بعض أدوار الدولة المعاصرة حالياً ، وبعض أدوار المجتمع المدني المعاصر ، لكن انظر كيف كان وعي أهل الصولجان لكيفية توظيف هذه المؤسسة لتأمين معاش دائم لذريتهم ، حيث إن الأوقاف محرم شرعاً مصادرتها ، ومن ناحية أخرى لتوظيف العلماء ليكونوا موظفين لدى السلطة يأتهمون بأمر الواقف صاحب السلطة ، هكذا جاءت العديد من المنشآت الدينية لتعبر في الوقت ذاته عن هبة الدولة وعظمتها وقوتها ، كما نرى في مدرسة السلطان حسن وجامع محمد علي .

كانت الأوقاف هي المحرك الوحيد لحركة العمران داخل المجتمع والواسطة بين السلطة بثرائها ، والتجار وثرائهم ، وبين الفقراء من خلال تقديمها للخدمات الاجتماعية إلى المجتمع ، فلم يكن في القديم للدولة دور في تقديم الخدمات الاجتماعية بل يتوقف دورها عند حفظ الأنفس وإقامة المشاريع الكبرى التي تضمن زيادة ريع الدولة من الضرائب كشق الترع وإقامة الجسور والسدود وتأمين الطرق ، ولما كانت الأوقاف تنبع من المجتمع وإليه فقد حقق المجتمع استقلالية نسبية في شؤونه.

في هذا الكتاب سيجد القارئ محاولة لاستكشاف معامل القيمة ودوره في العمارة الإسلامية ، فهذا المعامل هو أخلاقي رفيع نراه في أحكام طبقت من خلال فقه العمارة ، فأنجحت صياغات جمالية من حيث مظهرها ، لكن هذه الجمالية الشكلية تحمل في طياتها مضموناً قيمياً غير ظاهر للعيان ، لكن الدراسة الدقيقة تكشف عنه ، وعلى هذا فالفرد المتلقي للعمارة هو إنسان مرهف الحس يدرك ما تحمله من معان مركبة ، وسيجد القارئ تارة نفسه بين طرز معمارية مختلفة من



مضمونا حضاريا وبعضها الآخر مضمونا سلطويا سياسيا ، ويجمع بينهما أحيانا بعض العمائر ذات الدلالات المتعددة. تعد قبة الصخرة والحرم القدسي الشريف حولها أبرز العمائر التي تحمل مضامين حضارية. يعود تشييد القبة إلي العصر الأموي ، الذي شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية علي السيطرة علي العالم القديم ، اتخذ هذا النزاع صورا متعددة. منها تعريب طراز أوراق البردي التي كانت تصنع في مصر. وتعريب للنقود في إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الديني والسياسي للمسلمين ، ورغبته في إعادة حق ضرب النقود إلي الخلافة في شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والتأثرين فكان الإصلاح النقدي سببا مهما في القضاء علي الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسي. فضلا عن أن النقد العربي الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادي البيزنطي ، لذا اتجه عبد الملك إلي الاستقلال الاقتصادي بتعريب النقود ، فضلا عما يتيح هذا من توحيد النظام النقدي في دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضي.

اتجه عبد الملك بن مروان في إطار هذا المخطط الشامل إلي العمارة التي ترمز إلي سيادة الدولة واتجاهها الفكري ، ففي القدس تبني مشروعا ذا طابع سياسي ديني حضاري ، يركز علي الاهتمام بعمارة الحرم القدسي الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، لارتباط هذا الحرم بالعبقيرة الإسلامية فهو أول القبليتين ، وفيه صلي الرسول (صلي الله عليه وسلم) بالأنبياء واليه كان إسراؤه ومنه كان معراجه. ولها كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس ، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدي المسيحيين ، وما قد تحدته عمارة الكنائس في نفوس بعض المسلمين ، ورغبة عبد الملك في إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة . تبني مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى. ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة ، إبراز آثار الحرم ، فهي تعد أول عمل معماري واع لعظمته بل متباه بها ، انتهى من بنائها عام ٧٢ هـ / ٦٩٢ م. وهي تري من مسافات بعيدة ، وهي مبنية فوق صخرة مقدسة ، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مئمن ، شامخة في الهواء في مركز الحرم القدسي علي تل من تلال القدس .

نري هذا يتكرر في القاهرة أيضاً ، حينما اختار السلطان الكامل الأيوبي أن يشيد دار الحديث الكاملية في داخل القاهرة الفاطمية وعلي قصبته العظمي ، ليأتي الصالح أيوب من بعده ليشيد مدرسته عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م. علي جزء من القصر الشرقي الفاطمي ، لتستمر بذلك الأهمية السياسية لهذا الموقع الذي تأكد بالحاق شجرة الدر ضريح للصالح بالمدرسة عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م. وذلك وفاة لزوجها السلطان ، ولكي تذكر مماليكه بولائهم له ولها بالتبعية ، وشيدت لنفسها قبة بالتبعية ، وشيدت لنفسها قبة ضريحية بالقرب من مشهد السيدة نفيسة حملت ألقابا لها دلالات سياسية تعبر عن الفترة التي استبدت فيها بحكم مصر بعد وفاة تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب. كان موقع مدرسة الصالح أيوب جزءا من القصر الشرقي الفاطمي الكبير ، وهو ما أتاح للظاهر بيبرس البندقداري فرصة لكي يختار جزءاً من القصر لكي يشيد عليه مدرسته إلي جوار مدرسة الصالح ، معلنا بذلك بداية تسابق علي هذه المنطقة لتشيد المنشآت السلطانية ، ولكي يكرس إعلانه لقيام دولة المماليك علي أنقاض الدولة الأيوبية ، ومثلت هذه المدرسة تطورا إضافيا في عمارة المدارس في مصر وملحقاتها ، إذ ضمت كتاباً وسبيلاً لخدمة الهارة إلحقا بها.

مكونات العمارة ، ثم إعادة ضمها إلي بعضها من خلال نموذج تفسيري يوضح هذه العملية ، وبذلك يمكن الوصول إلي ماهية العمارة الإسلامية.

وتعتمد هذه الدراسة في بناء النموذج التفسيري علي دراسة العلاقة بين التحول السياسي ، والذي يعني انتقال السلطة من جماعة سياسية إلي أخرى ، وهو ما يطلق عليه ابن خلدون العصبية السياسية التي تقوم عليها الدول ، علي نحو ما حدث من انتقال للسلطة من الأيوبيين إلي المماليك في مصر ، ومن المماليك إلي العثمانيين ثم إلي محمد علي وأسرته.

وهذا الانتقال عادة ما يصاحبه تغير في نمط أو طرز العمارة وفي تخطيط المدن ، ولا يكون مثل هذا التغير سريع الحدوث ، بل يأخذ وقتاً من الزمن ، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون (في أن رسوخ الصنائع في الأمصار ، إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها). ونستطيع أن نترجم هذه العبارة معمارياً بأن الطراز المعماري المميز لأي عصر لا بد له من وقت لكي تتضح معالمه ، وهذا التميز المصاحب لأي طراز لا بد وأن ينشأ في ظل استقرار سياسي يتيح للمعماري الإبداع.

وهناك مستويات من البني تحدد العلاقة بين العمارة والسياسة: المستوى الأول: العمارة كشاهد سياسي ، وهو يمثل البنية السطحية ، وفي هذا المستوى تكون العمارة سجلاً للعديد من الأحداث السياسية التي مرت عليها ، أو حدثت في المنشأ المعماري ، أو تركت أثرها عليها ، ومن أمثلة ذلك باب زويلة الذي شيد في العصر الفاطمي ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين بالعاصمة المصرية ، وكان ذا وظيفة حربية ، إذ أنه كان يغلق على الحصن الذي كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

ولكن.. منذ عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ، حين وسط المظفر قطز أحد سلاطين المماليك أحد رسل التتار بظاهر باب زويلة ، ثم علق رؤوس رسل التتار الأربعة علي باب زويلة. اكتسب الباب منذ ذلك الوقت وظيفة سلطوية سياسية خاصة مع تلاشي دوره الحربي ، وتوالت حوادث الإعدام عليه ، منذ ذلك الحين حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، وأعدم السلطان المملوكي طومان باي آخر سلاطين المماليك علي هذا الباب ، وكان هذا الإعدام رمزاً لبداية عصر العثمانيين في مصر ونهاية عصر المماليك. وفي العصر العثماني وعصر محمد علي توالت عمليات تنفيذ حكم الإعدام علي هذا الباب حتى عصر الخديوي إسماعيل. كان لجلوس متولي الحسبة بالقاهرة عند هذا الباب أثره في تغير اسمه لدى العامة إلي باب المتولي. وبمرور الوقت نسي الناس السبب الحقيقي لهذه التسمية ، وتصوروا أن المقصود بالمتولي أحد الأولياء الصالحين ، ومن ثم ظل هذا الباب يتقرب إليه بعض العامة بربط الخرق بمساميره. كما يسعى السلاطين بإثبات انتصاراتهم علي عمائرهم بصورة أو بأخرى لتكون شاهداً على هذه الانتصارات ، ومن ذلك تعليق خوذة ملك قبرص علي باب مدرسة السلطان الأشرف برسباي بالقاهرة والتي انتهى من تشييدها عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م ، وهي السنة التي فتحت فيها قبرص. وظلت هذه الخوذة باقية حتى القرن ١١ هـ / ١٧ م.

المستوي الثاني: الرمزية السياسية للعمارة ، وهو يمثل أحد جانبي البنية العميقة. في هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع في العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية في عدد من المدلولات المعمارية ، يحمل بعضها